شعراء دار العلوم

بقلم
حضرة الأستاذ عبد الرحيم بن محمود
المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

دار العلوم خير دار نجلت أدباء ، كتابا وشعراء ، وقد نيفت اليوم على الستين عاما ، وما زالت فى فم الدنيا ابتساما . وما كانت الفنون اللسانية التى حذقوها وتوفروا على تعليمها بعد تعلمها إلا وسيلة للكلام الصحيح الفصيح نثراً وشعراً — وقد نبغ من دار العلوم كتاب هم لهاميم البلاغة وعرانين الفصاحة وتجلت آثارهم فى الصحف ولهم فيها الصدر كالأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والأستاذ التابعى كما تجلت رسائلهم فى المختارات الأدبية بأقلام محمد الخضرى بك ومحمود أبى النصر بك وحفنى ناصف بك وحسن توفيق العدل افندى والشيخ طنطاوى جوهرى والشيخ عبد الوهاب النجار مما اقتبس من الصحف ومؤلفاتهم المنوعة — ولست أريد الآن الكتابة فى أولئك الكتاب لأنى لم أعنونهم ولكنى أقصر كتابتى على شعراء دار العلوم واذكر آثارهم التليدة والطريفة التى جادت بها قرائحهم ولقيت من الآذان استماعا ، ومن القلوب انتجاعا ومن النفوس استمتاعاً .

وقد اعتاد الأدباء المؤرخون أن يعرفوا المتأدبين بالأديب المترجم له بوصفه وصفاته ، وباذاعة ما يتصل بحياته ، من مولده إلى مماته ، لأن للنشأة التى نشأ فيها الأديب ولوطنه وعصره ، أثراً فى نثره وشعره . ولكنى لا أنسج على هذا المنوال ، لأن معرفتهم بأدباء دار العلوم أكثر مما يكتب ويقال — والمعرف لا يعرف ومن ذا الذى يجهل تاريخ حياة شعرائنا مثل حفنى ناصف بك والشيخ محمد عبد المطلب وله ديوان مطبوع متداول

وكذلك الأستاذ على الجارم والأستاذ عبد المغنى المنشاوى والشيخ عبد الله عفيفى والأستاذ سليم المسلى وشاعر الاهرام الأستاذ محمد عبد الغنى حسن والأستاذ خلف الله والأستاذ سيد قطب من كتاب الاهرام والمغرد على فننها إلى غير أولئك ممن لم أذكرهم اليوم مجملا وسأذكرهم غداً مفصلا —

واكتفى بتعرف شاعرية كلّ شاعر من شعره الذى أحلله تحليلا فنياً من حيث المبانى والمعانى أولا والشعور ثانياً والخيال ثالثاً والمنطق رابعاً — وهـذه دعائم الشعر لا النظم العروضى أى الكلام الموزون المقفى — وإنى اسبر بمسبار عصرى الذى هو عصر كل منهم مبلغ الاستفادة بما رأى واختبر من المستحدثات وما انتفع به فى شعره من المخترعات وما أثر فيـه وفينا من الأخلاق والعادات ، والحقائق والترهات ، — وأؤخر الحكم له أو عليه بأدبه حتى تتم المقالات ، لأن الحكم نتيجة المقدمات ، فيلقى من الأفئدة إقبالا ، ومن النفوس إجلالا ؛ بعد أن يدخل الآذان بلا استئذان .

وما النثر الفنى الا شعر منثور إذ أنه قام على أركان الشعر التى سلفت وإن كنت لا أعرض له فى مقالاتى التى هى بذلك العنوان لتجرده من أوزان الشعر العربى الجاهلى والاسلامى .

فإن أنكر علىّ أحد حكمى ، واتهم فهمى فليردّ على كلمى — وإن أصبت فؤاد الحقيقة (وهى بنت البحث) فقد أصبت هدفى فى هـذه الطريقة الطريفة — وهـذا جناى وخياره فيه ، وكل جان يده إلى فيه .

وكأنما أتمثل بملك البيان أحمد شوقى بك حينما قال :

إنى وإن صفرت كاسى أخو كرم أسقى وأسقى أولى الألباب من كاسى

وإنى أريد المؤدبين على اتباع هـذه الشرعة ، وإن كانت صعبة ، فينبغى ألا يطنبوا فى التراجم ويوجزوا فى النماذج ويجتزئوا بتفسير

مفرداتها اللغوية وتحليلها نحويا لا بيانيا فقد ضاع الوقت وما أثمنه فى الإعراب، فى غير إعراب وإطراب ، والإبدال والإعلال فى اطراد المقال فاعتلت بنات الشفاه وبنات النهى ولما يمن الله عليها بالإبلال — واحر قلباه — فإن ضاق وقت التدريس بالمدارس عن تحقيق هذه الغاية لتشعب المناهج المخففة المثقلة فلن تضيق عنها المدارس فى غير المدارس والشعب العربية ، فى الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، ولن تضيق بها المجلات الأدبية ، والصحف اليومية .

وما علىّ إذا ما قلتُ معتقدى دع الجهول يظن الحق بهتانا

وأرانى مضطرا إلى توضيح منهجى التحليلى الذى أومأت إليه فى صدر مقالى حتى لا أذر مجالا لمستدرك ولا ريبة لمرتاب فى كل ما أجملت وأوجزت فأنير سبيلى بنور الهداية فى البداية فأقول :

(١) المعانى والمبانى — يقصد الشاعر من شعره ، مايقصده الناثر من نثره أى الإبانة عما فى نفسه من المعانى أيا كان المقام كالغزل والمديح والهجاء والرثاء والوصف والفخر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والسياسة وشكوى الحال والحكم والوعظ وضرب الأمثال ، إلى غيرها من أبواب الأدب التى عرفت عن العرب .

ومن هذه المعانى ماهو فطرى فيشترك فيه البدوى والحضرى من العرب والعجم كالأوليات والأحوال المشتركة فى الحياة والمشاهد التى يشهدها الناس فى البر والبحر والسماء والهواء والمشاعر الباطنة كما توحى بها الخواطر بلا مبالغة ولا كد خاطر - واتفاق الشعراء فى هذه المعانى الفطرية لا يعد سرقة ولا توارد خواطر - ومنها ماهو غريب نادر انتزعه الخيال من المرائى الجميلة والميول الجليلة وألف بينها تأليفا يأخذ بالألباب ، فى كل باب ، وذلك يسمى المعانى المخترعة وهو فى الفطر السليمة أكثر

انتزاعا ، وفى الأمم المتحضرة أجلّ إبداعا وبه تتفاضل الشعراء ، على أن يكون المعنى جليا على تسامية ، وللحقيقة فيه نصيب موفور وإن لبست ثوب الخيال . فان كان فيه مبالغة فعلى الأديب ألاّ يخرج بها عن العقل ومألوف الطبع . وعلى أن ترتب المعانى ترتيبا منطقيا وإن تداعت فينبغى ألاّ تجر إلى استطراد يخرجها من المقام إلى غيره فى غير مايقتضيه وللاستطراد البديعى موطن يحسن فيه لمناسبة تستهويه . فتأخذ المعانى بعضها بأيدى بعض،على مدّ القرض ، وتتساوق كما تتناسق تناسق الأزهار فى الطاقة ، والغزلان فى الرشاقة .

أما المبانى فتنتق ألفاظها فتكون رشيقة رقيقة ، سهلة جزلة ، وتتوثق الروابط بين عباراتها ويكون سداها البيان ، ولحمتها الافتنان ، وتوشى بالبديع من البديع فى غير تعمد وتكلف وإسراف . وحمادى المقال أن يكون اللفظ جزلا والأسلوب عذباً فينصب سرىّ المعنى فى سرىّ المبنى ، من أقرب الطرق إليه وأطرفها لديه .

وقد كنت أعدى أعداء الصناعة اللفظية فأصبحت من نصرائها فى الشعر العربى والنثر الفنىّ إذا بلغت الغاية فى الجمال والإتقان كنثر بديع الزمان وبين يدىّ أسواق الذهب لزعيم الأدب أحمد شوقى بك يروعنى فيه وفى شعره المبنى والمعنى كأنهما أُخِذَ السحر ، فى كلّ سطر ، كما يروعنى جمال التمثال ، الذى يحقق معانى الجمال ، وستجد أيها المتأدب شعراءنا مصوّرين بيانيين يتخذون الصنعة . وسيلة للروعة ، ولا غرو فانهم شبوا وشابوا فى وادى النيل تحت ظلال النخيل وصافحوا نسيمه العليل البليل بين آثار المدنية التليدة ، فى أحضان المدنية الجديدة . فتعلموا فى دار العلوم بعد الأزهر وعاشروا أمشاجاً من الناس مختلفى الأجناس فكان منهم المعلمون والقضاة والمؤلفون والمترجمون فى المنقول والمعقول ، والمعلوم

والمجهول ، وكانوا صادق الحدس لطيفي الحس فكهين في سرعة خاطر حاضري الجواب بين الصحاب ولا عجب إذا كان إنشاؤهم عذباً ، وشعرهم عجباً فبلابل الرياض مطبوعة على حسن الأنغام - ولم يحرموا أنفسهم جمال الدنيا وجلالها وقد ظهر أثر الجمال والجلال في شعرهم على ما ترى بعد - إن من البيان لسحرا -

(٢) الشعر شعور لأنه عنوان الحياة النفسية بما اشتملت عليه من مشاعر يمليها الفؤاد على القلم فتسيل شعرا على القرطاس وتتداولها ألسنة الناس — وأرق الشعراء شعرا أرقهم شعوراً .

(٣) الشعر حقيقة وخيال ، فشعر الحقيقة شعر الحكمة والعظة والأمثال ، - وإن من الشعر لحكمة - وشعر الخيال فيما عداها فتوثب النفوس إليه كما تتوثب للصور الحسية الرائعة يد المصور الماهر . في العابر والغابر ، والخيال أداة التصوير الشعري كما أن الألوان والذوق والرسم أدوات التصوير الحسي . فالشعر بخياله صورة تتكلم أو كلام يصوّر . وقد يفوق الشاعرُ المصوّر بالخيال البارع فقد يمثل لنا بكلمة مشهداً لا يستطيع تمثيله مصور ألف بين الألوان وأمعن في الأجادة كل الأمعان ولو كان روفائيل أمهر المصورين . وقد تلبس الحقيقة ثوب الخيال كما يلبس الخيال ثوب الحقيقة .

(٤) الشعر منطق لأنه إذا لم يكن موزوناً بميزان العقول كان كلاماً هُراء متنافراً . والشعور والخيال قد يشردان إذا لم يكن العقل رقيباً عليها ليخفف من غلوائهما ويكبح من جماحهما . وما أصدق قدماء اليونان إذ صوّروا الشاعر في مركب يقوده جوادان جامحان هما الخيال والشعور وقد جعلوا أعنتهما في يد العقل أي المنطق ليكبح من جماحهما وإلا هويا بالشاعر إلى الهاوية . ويا لتعريف الشعر بأنه الفلسفة تحمل زهراً . وإن

شئت فقل الشعر زهر فى أفنان الفلسفة (وهى الحقيقة الواضحة المؤيدة بالحجة الدامغة) فالمنطق يعصم العقل من الخطل كما أن علوم اللسان ولا سيما النحو تعصم اللسان واليراعة من الخطأ فى أساليب البيان.

وآية المنطق أنك تنثر القصيدة نثراً مرسلا بعد قراءتك لها فلا تزيد على أصلها ولا تنقص عنه فإذا ساير منثور القصيدة العقل كان قائلها شاعراً منطقياً وإلا فهو يهرف بمالا يعرف وكثير من أدبائنا ونقدة الأدب قديمه وحديثه قد عنوا بالمبانى نقدا والمعانى يعدونها عداً ولم يؤلفوا بين أجزائها طريقاً حتى يظهر لهم أنه معبد أو مقعد تخفى عليهم ركن من أركان الأدب ودعامة من دعائم النقد وهو العقل الذى إن لم يكن أقواها فليس دونها قوة وخطل العقل فى التفكير أهون من خطأ اللسان فى التعبير.

وقد رأيت أن أبدأ شعراء دار العلوم بشاعرها الأول حفنى ناصف بك رحمه الله سنة ١٢٧٢ — ١٣٣٧ هـ = ١٨٥٧ — ١٩١٩ م على منهجى السابق وقد ترجم حياته الوسيط لأستاذىّ الفاضلين الشيخ احمد الأسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ويشرفنى أن أكون من أعلم الناس بأديبه أدب نفسه وأدب درسه، لأنى من أبنائه المتأدبين بأدبه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩، ١٩١٠ ميلادية.

وقد رأيته قد شعر فى أغراض شتى من غزل ورثاء ووصف وشكوى الحال إلى غيرها وأجتزىء فى هذا المقال بعرض نموذجين من غزله العفيف فى لفظه الشريف ثم أكشف عن سحر مبانيه ودقة معانيه ورقة شعوره وحسن تخيله ونضج منطقه وهو استاذ اللغة والمنطق والأدب وفيها قد ألف وما استهدف — قال رحمه الله وهو مصطاف بأربة للاستشفاء —

(ا) النموذج الأول على البحيرة « جنيف فى سويسرة »

سل المهابين إفيان ولوزان ماذا فعلن بقلب المغرم العانى (١)

إذ كنّ فى الفُلك كالأقمار فى فَلَك يشرفن فيه على ألعاب نيران

فكم من الأرض سهم للسماء وكم سهم تسدّد لى من تحت أجفان

يعلو البحيرة من نيرانها شرر كزفرتى حين يجرى مدمعى القانى

يذهبن بالفلك أيماناً وميسرة فيها ويطربن من توقيع ألحان

سِرْبٌ يغنّين بالأفواه مُطْرِبَةً وثلةٌ بربابات وعيدان

والوُرْق فى الشاطئ الأدنى تجاوبها تبدى أفانين شدوٍ بين أفنان

(ب) النموذج الثانى « عيون وعيون »

أرجعوا لى يا غيد مارمباد مهجتى قبل عودتى لبلادى (٢)

إننى قد شددت رحلى وأهلى فى انتظارى فأطلقوا لى فؤادى

ليتنى لم أزر حماكم فانى فى هواكم أضعت كل رشادى

وبرانى الضنا فصارت ثيابى فوق جسمى كضرب ذى عماد

وأتانى السقام من حيث أبغى صحتى وانهزمت قبل الجلاد

* * *

حدّثوا أن فى حماكم عيوناً تذر الناس ضامرى الأجساد

صدقوا إنها عيون ولكن كحلت منذ خلقها بسواد

* * *

جنّبونى ذكر العيون فقلبى فى ارتعاش من فعلها وارتعاد

فهى كالكهرباء تومى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد

(١) إفيان ولوزان مدينتان على بحيرة جنيف بسويسره ـ المها البقر الوحشى مفرده مهاة ـ العانى الأسير المعذب (٢) مارمباد مدينة فى النمسا شهيرة بمياهها المعدنية الحارة التى يستشفى بها البادن فيخف جسمه فى غير إجحاف.